

١ - الصقالبية في الرواية العربية وفي الدولة الأندلسية للأستاذ محمد عبد الله عنان

ونظر إلى اللاشيء في القضاء ثم قال . والبيت الأخير :
لأبنتي في المدح غير أولي النهي أوصادق^(١) أو شوق أو مطران
ثم أمر ا . ش . أن يقرأ عليه الشعر فقرأه ، فقال : أحسنت ،
أنظر لي فوق ؟ فنظر ، ثم قال انظر لي تحت ؟ فنظر ثم سكت
قال ا . ش . : وبعد ؟ قال : وبعد ؟ فان الناس ينظرون إما إلى
فوق وإما إلى تحت ...

وكان الضجر قد نال مني ، فرجوت ا . ش . أن يلبث
معهما وأذنت لنا بنة القرن العشرين أن يلتقي في الندى
وانصرفت

قال ا . ش . وهو يُنبئني : فما غبت عنا حتى أخذ المجنون
يشكو ويتوجع ويقول : لقد حاق بي الظلم ، وإن (الرافى) رجل
طسوف ظالم لأنى أكتب له كل مقالته التي ينشرها في
(الرسالة) ... وأجمع نغمي لها ، وأجهد في بيانها ، وأذيب
عقلي فيها ، وهو مستريح وأدع ، وليس إلا أن ينتحلها ويضع
توقيعه عليها ويمت بها إلى المجلة ثم هو يقبض فيها الذهب وينال
الشهرة ولا يدفع لي عن كل مقالة إلا قرشين^(٢) ...

قال ا . ش . : فما عيتمك أن ترسل أنت هذه المقالات إلى
المجلة فتقبض فيها الذهب ، قال : إن هناك أسراراً أما
مُحسِنها وكاتبها ، ولا ينبغي أن يملها أحد فأنها أسرار ...
قال له : فدع (الرافى) واكتب لي أما هذه المقالات وأنا أعطيك
في كل مقالة ذهبين لا قرشين

قال هذه أسرار ولا أستطيع أن أكتب إلا للرافى ، لأن
(نابهة القرن العشرين) لا يجوز أن يدعى كلامه إلا أستاذ نابهة
القرن العشرين ، ولو ادعاه غيره لكان هذا خطأ من قدر نابهة
القرن العشرين . وهذا بعض الأسرار لا كل الأسرار ...
قلت : ثم جاء المجنونان في المشيئة إلى الندى

عنان

(لها بقية)

إلى الأستاذ ح . ع في بغداد : سرى كتاب الصديق الكريم ، ولكن
ما قصة الحبر الأخضر الذي يشبه الزمرد ؟
الرافى

(١) فسر (صادق) بأنه أستاذ نابهة القرن العشرين ...

(٢) لا يزال هذا السكين منذ تسعة أشهر يدعى أنه هو الذى يكتب لنا
هذه المقالات ، غير أنه رفع القيمة أخيراً فجعلها عشرين قرشاً ...

لم يمن العرب في فتوحاتهم الأولى بتعيين الأمم والأجناس
الأجنبية تمييزاً واضحاً ، وإذا استثنينا الفرس والروم والقبط
والبربر والقوط ، فان هذا التصنيف للأمم والأجناس الأجنبية
يتخذ في الرواية الاسلامية صفة التعميم النامض ، فنجد كلمات
« الأاجم » و« النصارى » و« الفرنج » تطلق على أمم وأجناس
متباينة لا يمكن تحديدها وتعيينها إلا على ضوء الحوادث
والظروف ؛ بل نجد كلمة « الروم » ذاتها تطلق في الرواية
الاسلامية الأولى على الرومان وعلى سكان الدولة الشرقية
(الدولة البيزنطية) اليونانيين وأحياناً على سكان المستعمرات
الرومانية مثل الشام وطرابلس ؛ وتطلق كلمة الفرنج لا على أمة
الفرنج (الفرنكيين) وحدها ، بل على معظم الأمم والممالك
النصرانية التي كانت تعيش يومئذ في غرب أوروبا وفي وسطها ؛
ولم تكن الرواية الاسلامية بالتصنيف والتحديد في هذا الميدان
إلا منذ القرن الثالث الهجرى ، وفي القرن الرابع نجد هذا
التصنيف القوي أكثر وضوحاً سواء من حيث اللفظ أو المعنى ،
فنجد الرواية الاسلامية تحدثنا عن الفرنج والمان (الألمان)
والبطار والروس والصقالبية ، وعن انكبردية (بلاد اللومبارد)
وافرنسة وبرطانية ؛ وهذا التقدم في تصنيف الأجناس والأمم
يرجع إلى تقدم بمائل في الجغرافية الاسلامية ، وإلى تقدم
العلاقات والصلات الدبلوماسية والتجارية بين الأمم الاسلامية
والأمم النصرانية

وقد كانت كلمة « الصقالبية » من أغصان الكلمات التي
أطلقت في الرواية الاسلامية على الأجناس الأجنبية الدخيلة ؛ ولم
يبق اليوم ثمة غموض في تعريف البلدان والأمم الصقلية ، فهي
تشمل قسماً من بلاد البلقان وتشمل صربياً ورومانياً وروسيا حتى
الشرق الأقصى وبولونيا وتشيكوسلوفاكيا وشرق ألمانيا ؛

بعد أن كانوا يقتصرون على تقلد الوظائف والمهام الصغرى في البلاط وداخل القصر ، مثل وظائف الخدمة السلطانية والنظر على الشؤون المنزلية المحضة كشؤون المائدة والضيافة والرياسة ، وزمام يسيطرون على شؤون الدولة العليا ، فيتولون الوزارة والقيادة والوصاية أحيانا ويسود نفوذهم في القصر وفي الحكومة . وقد كان هذا النفوذ يرجع في الغالب الى سياسة الدول والأمر ، تعمل لرعايته وإيثاره لبواعث سياسية واجتماعية ؛ وسنقتصر هنا على معالجة مركز الصقالبة ونفوذهم في الأندلس حيث كانت لهم دولة وكان لهم أيعا نفوذ

— ٢ —

كانت سياسة الدولة الأموية بالأندلس تقوم منذ البداية على اصطناع الموالى والصقالبة وأخذهم أداة ويطانة ؛ وكانت الظروف المعنوية التي أحاطت بقيام الدولة الأموية في الأندلس ، والخطوب والثورات الجمة التي تفجرت حول عبد الرحمن الداخل والتي أثارها خصومه ومنافسوه من زعماء القبائل العربية ، هي التي حملته على الاسترابة بالعرب وعلى اصطفاء البربر والموالى الذين آزره وقت الهمة ومكنوه من توطيد زمامته وإمارته (١) ؛ وقد حافظ خلفاء الداخل على هذه السياسة في جوهرها منذ البداية لشعورهم بأهميتها وضرورتها لمقاومة نفوذ القبائل الخصيمة التي كانت تتقاسم السلطان والنفوذ قبل قيام الدولة الأموية ؛ وظهر الصقالبة بكثرة لأول مرة في البلاط الأندلسي في عهد الحكم المنتصر حفيد عبد الرحمن الداخل (١٨٨ - ٢٠٦ م) ؛ وكان الحكم يعشق مظاهر الفخامة والملك الباذخ ، فنص البلاط الأموي في عصره بالختم والحشم من المماليك والصقالبة حتى بلغ عددهم زهاء خمسة آلاف (٢) وأخذ نفوذ أولئك الصقالبة يقوى شيئا فشيئا داخل القصر والبطانة . بيد أنه لبث مدى حين بعيدا عن شؤون الدولة العليا قاصرا على شؤون القصر والخاص

وفي عهد الناصر قوى نفوذ الصقالبة وازدهر ؛ وكان الناصر يجرى على سنة سلفه عبد الرحمن الداخل في الاسترابة بالقبائل

(١) راجع فتح الطيب - مصر - ج ١ ص ١٠٦ (٢) ابن الأثير ج ٦ ص ١٢٨

وبعبارة أخرى هي الأم التي تعرف اليوم بالأمم « السلافية » أو السلافونية « Slavs ; Slavonians » . ولكن كلمة « الصقالبة » في الرواية الإسلامية كانت بعيدة جدا عن أن تشمل مثل هذا التصنيف الواسع ، ومع أننا تراها مستعملة في الرواية الإسلامية منذ القرن الثاني للهجرة ، قلنا لبث دائما لفظا غامضا متباين المعنى . فثلا يستعملها البلاذري ، وهو من أقدم رواة الفتوح الإسلامية في أكثر من مناسبة ؛ فيقول لنا إن النصور « نقل أهل الخصوص وهم فرس وصقالبة وأنباط ونصارى من المصيصة وكان مروان أسكنهم إياها (١) » ؛ ومن الصعب أن تضبط المعنى الذي ينصرف إليه لفظ « الصقالبة » في هذا العصر المتقدم . بيد أنه يلوح لنا أن الكلمة كانت تطاق حتى القرن الثالث على سكان بلاد الخزر (قزوين) والقوقاز وما إليها ، ثم اتسع معناها نوبا وأطلقت على سكان البلقان المتساخمين للدولة البيزنطية مثل البلغار ؛ وقد كان الصقالبة في الواقع يستعمرون هذه الأجزاء في تلك العصور ، وكانت لهم في بلغاريا مملكة « سقلبية » حقيقية . وكان معنى الكلمة أوضح وأدق في الترتب الإسلامي ، في الأندلس وسقلية والمغرب ، حيث كانت تطلق على الأجناس السقلبية الحقيقية التي تسكن حوض البانوب الشرق والأوسط وألمانيا وضاف الأديباتيك ، ويؤتى منها الى الأندلس والمغرب بالمصيان والأسرى (٢) ؛ ويعرف الشريف الإدريسي بلاد الصقالبة بأنها هي شبه جزيرة البلقان ، وهو في الواقع معني أقدم من عصر الإدريسي ، بيد أن الإدريسي يشير على ما يظهر الى التحديد السياسي حيث كانت مملكة الصقالبة (بلغاريا) تنود يومئذ بلاد البلقان (٣)

وعرف الصقالبة وعرفتهم القصور الإسلامية في عصر مبكر جدا ، فنذ الدولة الأموية نجد في بلاط الخليفة وفي الجيش ؛ ولكن نفوذهم الحقيقي في القصور الإسلامية يبدأ منذ القرن الرابع الهجري ، فترام عندئذ يتقلبون في الوظائف والمهام العليا

(١) فتوح البلدان - مصر - ص ١٢٠ (٢) ويرى البعض أن كلمة سقلبية العربية مشتقة في الأصل من كلمة الإفرنجية (الفرنسية) ومعناها الترتيب والأسير (راجع رينو Invasions des Sarrazins, en France من ٢٢٧ وللراجع (٣) قرن المنعرق بارتولد Ency. de l'Islam: Slaves:

والألمان والفرنسيين (أهل افرنجة) واللومبارديين (أهل انكبردة) والايطاليين (من قلوبه) وكذلك الروس وهم أهل القسم الأول من بلاد الصقالبة . وكان معظم هؤلاء الصقالبة يؤتى بهم أطفالاً من الجنسين بواسطة خوارج البحر (القرصان) وبحار الرقيق ، ومحملهم سفن القرصان أو سفن البنادقة إلى مختلف ثغور البحر الأبيض ؛ وكانت الكنيسة تقاوم هذه التجارة المثيرة وتحرمها ؛ بيد أنها كانت تجرى في رومة عاصمة النصرانية ذاتها ؛ وفي معظم الثغور الايطالية . وكانت الحرب مصدراً آخر لجلب هؤلاء الصقالبة ، ففي كثير من الغزوات الاسلامية المنظمة لأهم النصرانية ؛ وفي الحملات والغزوات البحرية الناهية كان المسلمون يفتنمون كثيراً من السبي والأسرى صغاراً وكباراً ، ومنهم المقاتلة الذين يخدمون جنداً مرتزقة في معظم الجيوش النصرانية ؛ هذا عدا الرقيق والأسرى من مختلف الجنسيات والأمم يتدفقون على الثغور والمواضع الاسلامية عقب كل فتح أو غزوة ناجحة^(١) وكان الصقالبة يختارون في الغالب أطفالاً من الجنسين ، ويربون منذ الحداثة تربية عربية حسنة ، ويلتقون بمبادئ الاسلام ؛ وقد نبغ بعضهم في النثر والنظم وصنفوا الكتب والقصائد ، وبلغوا في عهد الناصر قسماً وافراً من السلطان والنفوذ ، واحتلوا الوظائف الكبرى في القصر وفي الإدارة والجيش ، وأحرزوا الضياع والأموال الوفيرة ؛ وفاق عديم في عهد الناصر أي عهد آخر حتى قدر بعض المؤرخين عديم يومئذ في القصر والبطانة بثلاثة عشر ألفاً وسبعمائة وخمسين ، وبلغوا في رواية أخرى ستة آلاف وثمانين ، وفي رواية ثالثة ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمسين ؛ وعلى أي حال فقد كان منهم الحرس الخلافي ، ورجال الخالص والحشم ، وكان الناصر يمد لهم في السلطان والنفوذ ويرغم أشرف العرب وزعماء القبائل على الخضوع لهم لئلا بذلك أنوفهم وصحوق هيبهم^(٢) بل كان منهم في عهد الناصر قائد الجيش الأعلى نجدة ، ومعظم أكاثر القادة والضباط ، وكان منهم أفصح صاحب الخيل وددى صاحب الشرطة ؛ ومنهم ياسر وتمام صاحبا النظر على الخالص^(٣)

العربية ذات العصبية والياس وفي إقصاء زعمائها عن مناسب النفوذ والثقة ؛ وكان بمن أقي الاستئثار بالسلطة حتى لقد ألتى وظيفة الحاجب ، وجمع مقاليد الحكم كلها في يده ؛ وعهد بالنائب الكبيرة الى رجال وضيئى المنبت من الصقالبة والوالى المعتقن أو الأرقاء ؛ وهم رجال لا إرادة لهم بوجههم كيفما شاء ؛ وكان يثق بالصقالبة بنوع خاص ويوليهم من النفوذ ما لا يوليه سواهم^(٤)

ومنذ أواسط عهد الناصر يبدأ نفوذ الصقالبة الحقيقي في بلاط قرطبة . وقد كانت كلمة الصقالبة تطلق في الأندلس كما قدمنا على الأسرى والخمسيان من الأجناس الصقلية الحقيقية ؛ ولكنها غدت تطلق بمعنى الزمن على جميع الأجانب الذين يخدمون في البطانة وفي الجيش ؛ ولما استحك نفوذ الصقالبة واستأثروا بحماية الخليفة والناصر ، أضحى الكلمة تطلق منذ عهد الحكم المستنصر على الحرس الخلافي^(٥) وقد أنهت الينا عن مقابلة الأندلس في هذا العصر رواية شاهد عيان هو الرحالة البغدادي ابن حوقل الذي زار قرطبة والزهراء في أواخر عهد الناصر أو أوائل عهد ابنه الحكم المستنصر وبحث أحوال الصقالبة وكتب عنهم في رحلته ما يأتي :

« وبالأندلس سلاح كثيرة ترد إلى مصر والغرب ، وأكثر جهازهم الرقيق من الجوارى والفلان من سبي فرنجية وجليقية . والخدم الصقالبة وجميع من على وجه الأرض من الصقالبة الخمسيان من جلب الأندلس ، لأنهم بها يمحسون ، ويفعل ذلك بهم تجار اليهود عند قرب البلد ؛ وجميع ما يسبي الى خراسان من الصقالبة فباق على حالته ، ومقر على صورته . وذلك أن بلد الصقالبة طويل فسيح ، والخليج الآخذ من بحر الروم ممتد على القسطنطينية واطرابندة يشق بدم بالمرض ، فتصف بدم بالطول يسبي الخراسانيون ويملون ، والنصف الشمال يسبي الأندلسيون من جهة جليقية وفرنجة وانكبرده وقلورية ، وبهذه الديار من سبيهم الكثير باق على حاله »^(٦) ، ومعنى ذلك أن الصقالبة الأندلسيين كانوا مزيجاً من الجليقيين (النصارى الأسبان)

(١) راجع رينو - الكتاب المشار اليه ص ٢٢٧ - ٢٢٩

(٢) Dozy ; idib ; II p. 153 - وراجع فتح الطيب ج ١ ص ٢٦٥

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٢١٣ - وفتح الطيب ج ٦ ص ١٧١

(١) Dozy : Hist des Musulmans d'Espagne ; II P 153

(٢) Lévy - Provençal : Ency de l'Isiam - Slaves

(٣) ابن حوقل في المسالك والممالك ص ٧٥